المحاضرة الرابعة

ابو العباس عبد الله السفاح (132_136 هـ/ 750_745 م)

التعريف بأبي العباس

هو عبد الله بن محمد بن علي العباسي وكنيته ابو العباس . ولد في عام (105 هـ/ 723 م) بالحميمة من ارض الشراة من البلقاء بالشام ونشأ فيها . بويع له بالخلافة في الكوفة يوم الجمعة الثاني عشر من (شهر ربيع الاخر عام 132 هـ / شهر تشرين الاول عام 749 م) .

ويلاحظ وجود تشابه بين اسمي ابي العباس السفاح و ابي جعفر المنصور (عبد الله بن محمد بن علي العباسي) مما دفع المؤرخين الى تلقيب الخليفة السفاح بعبد الله الاصغر نظرا لانه اصغر سنا من اخيه المنصور .

والقى ابو العباس على عادة الخلفاء لدى انتخابهم خطبة في مسجد الكوفة اوضح فيها الهدف الذي من اجله قامت الثورة العباسية وندد بالامويين الذين وصفهم بمغتصبي الخلافة ووعد الكوفيين الذين ساندوا الثورة بزيادة اعطياتهم ولم ينس ان يذكرهم بأنه : (السفاح المبيح والثائر المبير) .

كان الخليفة ابو العباس مقيما بالكوفة ويبدو انه ادرك وضعها الشاذ بفعل عدم تأييد غالبية سكانها للثورة العباسية وكانوا من شيعة علي بن ابي طالب (عليه السلام) فانتقل منها الى مكان قريب عرف بهاشمية الكوفة غير انه لم يمكث فيها طويلا وانتقل الى الانبار شمالي الكوفة على نهر الفرات في عام (134 هـ / 751 م) وبني بجوارها مدينة لنفسه عرفت بهاشمية الانبار . اقام بها حتى وفاته في عام (136 هـ / 754 م) .

قضى ابو العباس معظم عهده في تثبيت حكمه فحارب القادة العرب الذين ناصروا الامويين ثم تخلص من بعض القادة الذين ساندوه في الوصول الى الحكم بعدما بدرت منهم بوادر انفصالية مثل ابا سلمة الخلال .

كان ابو العباس يحب مسامرة الرجال ومجالسة العلماء شجع الادب والغناء واجزل العطاء للشعراء والمغنيين . وكان يطرب من وراء الستر .

الأوضاع الداخلية في عهد ابي العباس

كان ابو العباس حين بويع بالخلافة لا يملك الا ما ملكه جنده . فجيوشه تستعد للجولة الاخيرة مع الامويين والامور كلها بيد القواد و الدعاة فكانت مهمته شاقة و عسيرة . كان عليه ان يثبت اقدام العباسيين في الحكم ويوطد اركانهم . فرأى ان يستعين باخوته واعمامه و أبناء اخوته ويشركهم في امره حتى لا يستأثر القواد والدعاة بالامر دونه من جهة ومن جهة اخرى فانه اراد نقل السلطة تدريجيا الى ايدي افراد الاسرة العباسية .

فعين عمه سليمان بن علي واليا على البصرة واعمالها ، وعمه اسماعيل بن علي على كور الاهواز وعمه داوود بن علي على الحجاز واليمن بعد عزله عن الكوفة ، وعمه عبد الله بن علي واليا على حرب مروان الثاني ، واخاه ابا جعفر المنصور لقتال يزيد بن هبيرة .

ويبدو انه حصل تململ من قبل بعض القواد الذين قامت الثورة على اكتافهم وخشوا ان يقطف غيرهم ثمار جهودهم مما دفع الخليفة الى طمأنتهم واقناعهم بان مشاركة اهله ليست الا مشاركة تشريفية . فقد كتب الى الحسن بن قحطبة حين جعل معه اخاه ابا جعفر : (ان العسكر عسكرك ، والقواد قوادك ، ولكن احببت ان يكون اخي حاضرا والمتولي للامر) .

التفت ابو العباس بعد ذلك الى تصفيه جيوب الامويين . فبعد ان هزمت قواته بقيادة عمه عبد الله بن علي قوات مروان الثاني على الزاب و طاردته حتى مصر وقتلته هناك نشبت الفتن و الاضطرابات الداخلية ضد حكمه في المناطق العربية مثل فلسطين والشام و الجزيرة التي كانت مركزا للنفوذ الاموي ثم شعرت بان هذا النفوذ لم يلبث ان زال منها وتحول الى خراسان . ثم ان قواد مروان الثاني خشوا على انفسهم من بني العباس الذين اظهروا قسوة شديدة في معاملة اعدائهم كما طمع بعضهم في اعادة احياء الخلافة الاموية .

نذكر من هذه الحركات خروج كل من حبيب بن مرة المري في اقليم البثينة بفلسطين والبلقاء و حوران ، وخروج ابو الورد بقنسرين وحركة اسامة بن مسلم في الجزيرة . ويلاحظ ان قادة هذه الحركات كانوا يرفعون الاعلام البيضاء ويسمون انفسهم بالمبيضة كدليل على تمردهم على الحكم العباسي الذي اتخذ السواد شعارا له وسمي اتباعه بالمسودة .

هذا وقضى عبد الله بن علي عدة اشهر في عمليات عسكرية مستمرة قبل ان يتم القضاء على هذه الحركات واخضاع مدن الرقة وحران والرها وماردين ودمشق وبيت المقدس .

والتفت ابو العباس الى معالجة قضية تمرد يزيد بن هبيرة وكان متحصنا في واسط فأرسل ابو سلمة جيشا بقيادة الحسن بن قحطبة حاصرة فيها . وجرت مناوشات بين الطرفين لم تسفر عن نتيجة مما دفع ابا العباس ان يرسل اخاه ابا جعفر ليقود حصار واسط بنفسه . ولما اتى ابن هبيرة خبر قتل مروان الثاني طلب الصلح وجرت مفاوضات بين الطرفين اسفرت عن منح ابن هبيرة وانصاره الامان . وبعث ابو جعفر بكتاب الامان الى الخليفة الذي استشار ابا مسلم في ذلك . وبناء على نصيحة هذا الاخير امر ابو العباس اخاه ابا جعفر بقتل ابن هبيرة وعدد من اصحابه . وبقتل ابن هبيرة تمت تصفية الجيوب الاموية .

وقام ابو العباس بتصفية المنافس السياسي الذي اراده ان يملك ولا يحكم وهو ابو سلمة الخلال وزير آل محمد فاتهمه بانه كان يريد تحويل الخلافة من بني العباس الى آل علي بن ابي طالب (عليهم السلام) وقد هم ان يفتك به حين بويع بالخلافة لكن ظروف الدولة الناشئة كانت لا تسمح له بذلك فأقره على منصبه هذا وتسميته تلك .

وحانت الفرصة للسفاح بان يتخلص من وزيره بعد ان قضى على الحركات المناهضة لحكمه وثبت اقدامه في الحكم . لكن داوود بن علي نصحه ان يكتب الى ابي مسلم يشرح له ما كان من امر ابي سلمة حتى لا يستوحش . فوجه ابو مسلم المرار بن انس الضبي ليقتله وقد كمن له مع اسيد بن عبد الله وقتلاه في (شهر رجب عام 132 هـ / شهر شباط 650 م) .

الاوضاع الخارجية في عهد ابي العباس السفاح

اولا :- جبهة الشرق

في الوقت الذي كانت فيه هذه الاحداث تقع في العراق والشام والجزيرة كان ابو مسلم الخراساني القائد الاول للثورة العباسية قد تسلم الحكم عاملا للخليفة في خراسان والجبال فقام يثبت اقدام العباسيين في هذه المناطق وقضى على الثورات المناهضة للحكومة المركزية .

وتعرضت بلاد ما وراء النهر في الوقت نفسه لخطر كبير من جانب الصينيين . فقد استغل هؤلاء تضعضع اوضاع المسلمين والفراغ الذي احدثه سقوط دولة الترك الغربية لبسط سلطانهم على بلاد ما وراء النهر التي اعتاد حكامها السابقون ان يرسلوا بسفارات الى الصين منذ عهود بعيدة ليقدموا الولاء للأمبراطور الصيني فاخذوا يمدون العون للحكام المحليين المناوئين للحكم الاسلامي .

والواقع ان الصراع بين الطرفين الاسلامي والصيني كانت تحركه دوافع حضارية و تجارية وكان السؤال المطروح انذاك : ايهما كانت ستكتب له الغلبة على تلك البقاع ، الحضارة الاسلامية ؟ ام الحضارة الصينية ؟ .

فمن ناحية الدوافع التجارية كان المسلمون يتطلعون الى بسط سيطرتهم على طرق التجارة العالمية مع الشرق الهند والصين وتحجيم الدور الصيني في التجارة العالمية . ففي عام (132 هـ / 750 م) استولى الجيش الصيني على مدينة سوياب وخربها . وفي العام التالي استغل الصينيون وقوع نزاع بين أخشيد فرغانة وملك الشاش و استنجاد الاول بهم فهرعوا يبسطون سيطرتهم على المنطقة و ظهروا امام فرغانة وهاجموا مدينة الشاش وحاصروا ملكها الذي نزل على حكمهم .

واستطاع القائد المسلم زياد بن صالح الذي كان قد فرغ لتوه من اخماد ثورة شريك بن شيخ المهري في بخارى ان يلحق الهزيمة بالجيش الصيني على نهر طراز في (شهر ذي الحجة عام 133 هـ / شهر آب عام 751 م) .

هذا وقد حالف التوفيق ابا داوود خالد بن ابراهيم الذي عينه ابو مسلم حاكما على بلخ وذلك في عملياته العسكرية التي نفذها في نواحي الختل وكش فهرب حاكم الختل الى الصين وقتل دهقان كش فخلفه اخوه على العرش .

ثم حدث ان تعرضت الصين الى مشكلات داخلية ونشبت فيها حرب اهلية بفعل الصراع على العرش مما صرف الصينيين عن التدخل في شؤون بلاد ما وراء النهر. وتعد معركة طراز نهاية التدخل الصيني في هذه المنطقة التي نعمت في ظل الحكم العباسي بعهد طويل من الرخاء .

ثانيا :- الجبهة البيزنطية

استفادت الدولة البيزنطية من الاضطرابات التي سادت الدولة الاسلامية نتيجة انتقال الخلافة من الامويين الى العباسيين ونقل العاصمة من دمشق فهاجمت المناطق الشمالية للدولة الاسلامية ونحج الامبراطور قسطنطين الخامس في توسعة حدود بلاده بعيدا نحو الشرق عندما اغار على مناطق الثغور الشامية والجزرية واستولى على مدنها و قلاعها .

وقاد الامبراطور في عام (133 هـ / 751 م) حملة الى منطقة الحدود مع ارمينيا واستولى على حصن ثيودو سيبوليس (ارضروم) ولم يتمكن الجيش العباسي الذي كان يقوده مخلد بن مقاتل بن حكيم من الصمود .

وتابع الامبراطور اجتياحه للمنطقة وسيطر على حصن كماخ على نهر الفرات بعد مقاومة وهاجم الثغور الجزرية ودمر تحصينات الفرات و استولى على الحدث وملطية وقلوذية وخرب حصن سميساط .

ويبدو ان قسطنطين الخامس هذا قد هدف من اجتياحه للمنطقة تدمير مراكز الامدادات وقواعد الانطلاق الاسلامية للحد من اندفاع المسلمين الى داخل الحدود البيزنطية بفعل انه ادرك استحالة الدفاع عن هذه المناطق في حال استقر البيزنطيون فيها نظرا لبعدها عن العاصمة . لذلك امر بهدمها وتخريبها فهدد بذلك نظام الثغور الاسلامي .

والواقع ان بيزنطية قد اطمأنت الى ان النشاط الاسلامي رغم كثافته لن يؤثر على امنها مثلما كان الحال في عهد دولة الخلافة الاموية . وبالرغم من ذلك فقد اقامت نظاما دفاعيا ثابتا بان جعلت مناطق الحدود المواجهة للمسلمين مناطق عسكرية دائمة تمركزت فها قوات عسكرية .

كان رد الفعل الاسلامي محدودا في بادئ الامر ثم اخذ يقوى تدريجيا وظهرت حركة الاستجابة بالرد على الهجمات البيزنطية مع اقتراب استقرار اوضاع الخلافة فاستؤنفت حركة الصوائف والشواتي .

ففي عام (134 هـ / 752 م) ارسل ابو العباس صائفتين الى ملطية الاولى بقيادة عميه صالح وعيسى ابني علي فخربا سورها والثانية بقيادة محمد بن نصر بن بريم الحميري الذي دخل حصن طوانة كما وجه في نهاية هذا العام غارة بحرية الى صقلية وسردينيا بقيادة عبد الله بن حبيب الفهري .

ويبدو ان ابا العباس هدف الى بعثرة قوة بيزنطية و تشتيتها لتخفيف الضغط العسكري عن الجبهات العسكرية . وحرص الخليفة على استعادة ما استولى عليه البيزنطيون مثل ارضوم و ترميم ما خربوه مثل ملطية كما برهن وصول البحرية الاسلامية الى الجزر على استمرار النشاط البحري فكلف واليه على الشام وهو عمه عبد الله بن علي في عام (136 هـ/753م) بتجهيز حملة الى اسيا الصغرى . تجمعت الحملة في دابق شمالي حلب استعدادا للانطلاق الا ان وفاة الخليفة في تلك السنة جعلت عبد الله بن علي يحجم عن قيادتها و اظهر عن مطامعه في السيطرة الخلافة .

وبشكل عام يمكن وصف المناوشات العسكرية بين الطرفين في ذلك الوقت بحرب الحدود .

_الوزارة في عهد ابي العباس

استحدث منصب الوزير مباشرة بعد انتصار الجيوش العباسية على الجيوش الاموية وقبل مبايعة ابي العباس السفاح بالخلافة وهذا المنصب هو نظام فارسي قديم . ويبدو ان ابا العباس حين اقر نظام الوزارة راعى تطور الدولة واتجاهها نحو المركزية وتوزيع السلطات . وقد تم ذلك بتحريض الفرس وتأثير الخراسانيين . اذ انهم دعوا ابو سلمة الخلال (وزير آل محمد) واقره ابو العباس .

لكن سلطات الوزير لم تحدد بصور واضحة في عهد ابي سلمة ومع انه سمي وزيرا الا انه لم يكن يتمتع بصلاحيات او سلطات كاملة في جميع الدواوين فلم يكن ديوان الخراج و ديوان الجند داخلين في سلطته . وكثيرا ما وقع التصادم بين سلطة الخليفة وسلطة الوزير بفعل عدم تحديد صلاحيات الثاني في حين كانت صلاحيات الاول محددة بشكل واضح . وكان الوزير يرغب بالسيطرة على الجهاز الاداري كله وينفذ جميع الصلاحيات . وكانت سلطة الخليفة هي التي تثبت امام محاولات الوزير .

ثم اخذ هذا النظام يتطور حتى استقر و توضحت معالمه في العصر العباسي الاول فجعلت للوزارة اختصاصات معينة وقواعد ثابتة لعل اهمها الاشراف على الشؤون المالية . فالوزير هو المختص بأمور الدخل و الخرج يتولى ديوان الخراج و ديوان النفقات ويشرف على الضرائب ويجمع في شخصه السلطتين المدنية والعسكرية بالاضافة الى الواجبات العامة من نصح الخليفة و مساعدته وينوب عنه في حكم البلاد اي انه كان بمثابة الساعد الايمن للخليفة .

والوزارة في عهد العباسيين على نوعين :

_وزارة تنفيذ .

_وزارة تفويض .

فوزارة التنفيذ تنحصر في تنفيذ اوامر الخليفة ولا يتصرف فيها الوزير تصرفا شخصيا مستقلا و انما الوزير في هذه الحال همزة الوصل الوحيدة بين الإمام والشعب .

اما وزارة التفويض فتقوم على تصرف الوزير المطلق في شؤون الدولة بعد ان يكون الخليفة قد فوض اليه ذلك ويبقى للخليفة حق التصرف في ولاية العهد و عزل من لا يرضى عنهم ممن يوليهم الوزير بعض الاعمال .

وعندما ضعفت سلطة الخلفاء العباسيين تحول النفوذ من الخلافة الى الوزارة فارتفع شأن الوزراء واضحت وزارة تفويض بعد ان كانت وزارة تنفيذ . لكن حدث في فترة قوة الدولة ان فوض الخلفاء امور الدولة لوزرائهم ومن اشهر وزراء التفويض في العصر العباسي الاول آل برمك .

ويعد منصب الوزارة كما تبلور في العصر العباسي الاول ذا اهمية كبيرة وخطيرة في الوقت نفسه . فمن حيث اهميته فهو اهم منصب في الدولة العباسية بعد منصب الخلافة ومن حيث خطره فقد ترك الوزراء بصمات واضحة في كل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية و الادارية والفكرية واستغل بعضهم هذا المنصب لخدمة اغراض سياسية اقليمية معارضة لسياسة الدولة العباسية خاصة اذا علمنا ان غالبية الوزراء الذين تولوا منصب الوزارة في العصر العباسي الاول كانوا من الفرس .

استوزر ابو العباس بعد ابي سلمة خالد بن برمك وقد رفض ان يسمى وزيرا خشية ان يصيبه ما اصاب سلفه مع انه خلفه في مهام منصبه بالاضافة الى جميع المهمات الاخرى التي كان يقوم بها و اهمها الاشراف على ديوان الخراج و ديوان الجند بالاضافة الى الغنائم .

ولاية العهد _ وفاة السفاح

عهد السفاح في عام (136 هـ / 754 م) لاخيه ابي جعفر بالخلافة من بعده ثم عيسى بن موسى بن محمد وكتب العهد بذلك و اعطاه الى عيسى بن موسى .

اصيب السفاح بالجدري وهو بالانبار و توفي في الثالث عشر من (شهر ذي الحجة عام 136 هـ / شهر حزيران عام 754م) و دفن في قصره بالانبار .